

*Natalie Zemon Davis | ناتالي زيمون ديفيز
 **Translation: Thaer Deeb | ترجمة ثائر دياب

أَسْفَارُ الْأَلْعَبَانِ: مُسْلِمٌ مِّنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ ***

Trickster Travels: A Sixteenth Century Muslim between Worlds

هذا النص هو مدخل كتاب ناتالي زيمون ديفيز **أَسْفَارُ الْأَلْعَبَانِ: مُسْلِمٌ مِّنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ** الذي صدر في طبعات عديدة حمل بعضها العنوان الفرعي **البحث عن ليون الأفريقي**. وقد عُدَّ ستي芬 غرينبلات، عمدة "التاريخانية الجديدة" ومنظراً لها، هذا الكتاب روعةً من روائع صنعة المؤرخ. تعرّض ديفيز في هذا المدخل لمادتها، حياة الحسن الوزان أو ليون الأفريقي وأعماله، لا سيما كتابه **وصف أفريقيا**. وتلاحظ أن مقداراً كبيراً من الصمت والغموض يلفانها، سواء في أوروبا حيث أسر أو في شمال أفريقيا التي عاد إليها بعد طول غياب. وهي تتفحص تفاصلاً نقدياً مفهوماً لا كل ما قيل عن الوزان، في التأريخ والجغرافيا كما في التحقيق والسيرة والأدب. ولعل الأهم في هذا المدخل هو أن ديفيز لا تعمد إلى وضع عملها هذا في سياق أعمالها وما طرأ على منهجيتها ورؤيتها التاريخية من تغيرات فحسب، بل أيضاً في سياق ما طرأ من تبدل المنهجيات والرؤى عموماً وصولاً إلى لحظة كتابتها. فمن الاهتمام بالبشر قليلاً الشأن في كتبها السابقة إلى الاهتمام بالمواجهة بين أوروبا وأفريقيا، ومن طرائق التفكير القطبية في النظر إلى علاقة المستعمرون بالمستعمرين إلى فكرة الهجننة والمنطقة الوسطى، إنما من دون التخلّي عن فكريتي السيطرة والمقاومة، كما يفعل هومي بابا، مثلًا، ومن دون أي تناقض للسياسات الشرسة التي تمارسها الحكومات تجاه الغرباء والاستغلال الاقتصادي والجنساني للمهاجرين، للتوكيل بدلاً من ذلك على ضروب التبادل الثقافي واستراتيجيات الوافدين في التكيف.

كلمات مفتاحية: ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، منهجيات التاريخ، الهجننة، الاستغلال، المقاومة.

This text is the preface to Natalie Zemon Davis' *Trickster Travels: A Sixteenth Century Muslim between Worlds*, published in numerous editions, some subtitled *In Search of Leo Africanus*. Stephen Greenblatt, the dean of "New Historicism," considered this book a masterpiece of the historian's craft. Here Davis introduces her book's topic of the life and works of Hassan al-Wazzan or Leo the African, and especially his *Description of Africa*. She observes that much silence and mystery surrounds him, whether in Europe where he was imprisoned or in North Africa to which he returned after a long absence, and details everything said about al-Wazzan in biography, literature, geography and historical inquiry and chronicle. In this preface Davis not only situates her book in the context of her other works and the changes that have taken place in her methodology and historical vision, but also considers changes that have occurred in methodologies in general, right up to the moment of this latest endeavor: from an interest in people of diminished status in her previous books to concerns relating to the confrontation between Europe and Africa, and from polarized ways of looking at the relationship of colonizer with colonized to the idea of hybridization and middle ground - while not relinquishing the two key ideas of *control* and *resistance* (as per Homi Baba, for example), and without ignoring governments' antagonism towards foreigners and economic and sexual exploitation of migrants - she instead focuses on avenues of cultural exchange and emigrant coping strategies.

Keywords: Leo the African, Historical methodologies, Hybridization, Exploitation, resistance.

* أستاذة مساعدة في قسم التاريخ والأنثropolوچيا في جامعة تورonto في كندا، وهي باحثة متخصصة في دراسات العصور الوسطى.
 Assistant Professor in the Department of History and Anthropology at the University of Toronto, Canada, and a specialist in Medieval Studies.

** كاتب ومترجم سوري.

Syrian writer and translator.

*** Natalie Zemon Davis, *Trickster Travels: A Sixteenth-Century Muslim between Worlds* (New York: Farrar, Straus and Giroux/Hill and Wang, 2006).

في عام 1514، أهدى ملك البرتغال مانويل الأول Pope Leo X King Manuel I of Portugal فیلاً أبيض من الهند. وجرى استعراض هذا الفيل في شوارع روما في احتفال مُتَّقِنٍ، وأطلق عليه الرومان المحتفون اسم "آوني" أو "آنو"، وعبر لدى البابا عن نية الملك بسط السيطرة المسيحية على تلك الممالك الممتدة من شمال أفريقيا حتى الهند. عاش الفيل في حظيرته ثلاث سنوات، وكان له حضوره في المناسبات والاحتفالات الشعبية، ونال حظوة لدى البابا وعامة الرومان. وتغنى به الشعراء وجامعو الأساطير وكتاب الأهاجى، ورسمت له رسوم ولوحات، وحُفِرَ على الخشب، وكان يُرى في زينة نافورة وفي نحت بارز وعلى طبق زاهٍ. وصمم رافائيل جدارية الجص التذكارية الخاصة بهذا الفيل⁽¹⁾.

في عام 1518، تلقى البابا نفسه من قرصان إسباني، فرغ لته من حملاته الظافرة على سفن المسلمين في المتوسط، رحالةً ودبلوماسياً أسيراً من فاس في شمال أفريقيا يُدعى الحسن الوزان. وكان الأمل أن يكون هذا الأخير مصدرًا نافعاً للمعلومات ورمزاً في حملة البابا المنشودة على الأئراك العثمانيين ودين الإسلام. ألم يَقُدِّمُ الأئراك تهديداً متزايداً للعالم المسيحي منذ أن فتحوا القسطنطينية في عام 1453؟ ولقد أشارت يوميات ومراسلات دبلوماسية إلى وصول هذا الدبلوماسي وحبسه. وكانت عماته في كنيسة القديس بطرس بعد خمسة عشر شهراً حفلاً عظيماً. وثمة قييم مكتبة سجل ما استعاره من كتب. لكن سنوات الحسن الوزان النسج في إيطاليا مضت، بالقياس إلى "آنو"، من دون أن يسجلها أولئك الذين رأوه، ومن دون أن يحتفي بذلك حضوره أولئك الذين خدمهم أو عرفهم، ومن دون أن يرسم أحد صورته ويعيد رسملها، ومن دون أن يُشار إلى عودته إلى شمال أفريقيا إلا لاحقاً ومواربةً. ولم يبق من حياته في ذاكرة الأوروبيين المهتمين بالأداب العربية وأدب الرحلات سوى أشتابات تتناقل شفوياً ولم تُسجّل إلا بعد سنوات.

كانت ثمة ضروب من الصمت المحير في شمال أفريقيا أيضاً. ففي سنوات خدمة الحسن الوزان مبعوثاً لسلطان فاس في مدن على طول ساحل مراكش الأطلسي، لا نجد ذكرًا له لدى العسكريين والإداريين البرتغاليين في رسائلهم المهدارة إلى الملك مانويل. وفي سنوات مهماته الدبلوماسية في القاهرة، لا نجد ذكرًا له لدى ذلك الراصد الحاذ النظر الذي كتب في تاريخه عن زوار بلاط حكام مصر والشرق الماليك.

لكن الحسن الوزان خلف وراءه في إيطاليا مخطوطات عدّة، نُشرت إحداها في عام 1550 وراجت أشدّ الرواج. ولقد اجتب هذ الكتاب على مرّ القرون فضول القراء والباحثين في أنحاء كثيرة من المعمورة. وكانت الأنغاز المتعلقة بصاحب هذا الكتاب، وشملت حتى اسمه، قد بدأت مع أول طبعة له؛ إذ عمد محققه، جيوفاني باتيستا راموزيو، إلى وسمه بـ *La Descrittione dell'Africa* (وصف أفريقيا)، ودعا مؤلفه باسمه في المعجمية *Giovan Lioni Africano* (جيوفان ليوني أفريقيانو)، وضمّن إهداءه سيرةً موجزةً له. وهكذا عُرِفَ في الطبعات المتعددة التالية التي نُشرت في البنديقية لهذا الكتاب بوصفه الجزء الأول من سلسلة راموزيو الموسومة *أسفار بحرية ورحلات*. وكذا عُرِفَ في الترجمات الأوروبية التي سرعان ما ظهرت: [sic] *Iean Leon, African* في الترجمة الفرنسية (1556)؛ و *Ioannes Leo Africanus* في الترجمة اللاتينية (1556)؛ *Johann Leo, a Moreg* في الترجمة الإنكليزية (1600)، ووصولاً إلى الترجمة الألمانية (1805) التي أوردت اسمه على النحو *Johann Leo der Africaner*، ظلّ هذا الكتاب يشكّل تصورات الأوروبيين عن أفريقيا بتلك القوة المطردة نظراً إلى صدوره عن شخص عاش في تلك الأنهاء وجال بها⁽²⁾.

1 Silvio A. Bedini, *The Pope's Elephant* (London: Carcanet, 1997), especially chaps. 2, 4, 6-7.

2 *Johann Leo's des Africaners Beschreibung von Africa*, Georg Wilhelm Lorsbach (trans.) (Herborn, 1805), discussed in: Dietrich Rauchenberger, *Johannes Leo der Afrikaner. Seine Beschreibung des Raumes zwischen Nil und Niger nach dem Urtext* (Wiesbaden, 1999), pp. 165-171.

في هذه الأثناء، وقع باحث في مكتبة الإسکوريال في إسبانيا، وهو مسيحي ماروني من سوريا، على مخطوطة عربية للوزان تتناول موضوعاً آخر. وحملت هذه المخطوطة كلاً اسميه المسلم والمسيحي اللذين ضمنهما قيمة المكتبة في قائمته المنشورة (1770-1760). وبعد قرن من ذلك، حين احتفى المستشرق الفرنسي البارز شارل شيفر بكتاب الوزان وصف أفريقياً في عمله *جامع الرحلات*، ظهر اسم عربي في المقدمة؛ أما في سلسلة جمعية هاكليت لأدب الرحلات في إنكلترا، فورد في صفحة العنوان: Al-Hassan Ibn-Mohammed (تأليف الحسن بن محمد الوزاز، مغربي عُمِّد باسم جيوفاني ليوني، لكنه اشتهر باسم ليون الأفريقي)⁽³⁾.

لكن مؤلف وصف أفريقياً بقي شخصية مهمـة. وفي العقود الأولى من القرن العشرين، قارب بعض الباحثين الكتاب والرجل بطراقيـة جديدة. وفي سياق "العلوم الاستعمارية" الفرنسية الجديدة التي عـنيت بجغرافياً أفريقياً وتاريخها وإثنوغرافيتها، قـدم لوـي ماسينيون الشاب أطروحتـه في السوربون حول المغرب في أوائل القرن السادس عشر كما وصفه "ليون الأفريقي". استخلص ماسينيون، بقراءة وثيقة للنص (وهي تقنية سوف تـزدهـر في أعمالـه اللاحقة عن التصوـف والشعر الصوفي)، ما أمكنـه استخـالصـهـ، لا عن جغرافياـ المغرب فحسب بل عن حـيـاةـ الوزـانـ وأـسـفارـهـ أـيـضاـ، لا سيـماـ عن مـصـادـرـهـ وـطـرـائـقـهـ فيـ المـلاحـظـةـ وـالتـصـنـيـفـ. ورأـىـ مـاسـينـيونـ أنـ كتابـ الوزـانـ "متـأـورـبـ كـثـيرـاـ"، لكنـ "لبـابـهـ عـرـيـ إلىـ حدـ بـعـيدـ". نـشرـتـ درـاسـةـ مـاسـينـيونـ فيـ عـامـ 1906ـ، وـكـانـ هـذـهـ لـحظـةـ مـهمـةـ فيـ خطـواتـ فـرـنسـاـ نحوـ جـعـلـ المـغـرـبـ مـهـمـةـ لـهـاـ⁽⁴⁾.

اطـلـعـتـ المـتـخصـصـةـ بالـجـغـرافـيـاـ التـارـيـخـيـةـ أـنجـيلاـ كـوـدـاتـزيـ علىـ كـتـابـ مـاسـينـيونـ أـحسـنـ اـطـلـاعـ وـأـخـذـتـ عـلـىـ مـحـمـلـ الجـدـ أـمـلـهـ بـأنـ يـعـثـرـ يـوـمـاـ عـلـىـ مـخـطـوـطـةـ أـصـلـيـةـ لـكـتـابـ الـوزـانـ. وـنـظـرـاـ إـلـىـ قـرـيـبـهـاـ منـ مـجـامـعـ الـمـكـتبـاتـ الإـيطـالـيـةـ، كـانـ فـيـ مـقـدـورـهـاـ أـنـ تـلـعـنـ فـيـ عـامـ 1933ـ أـنـهـاـ وـقـعـتـ عـلـىـ مـخـطـوـطـةـ إـيـطـالـيـةـ لـوصـفـ أـفـرـيقـيـاـ، وـأـنـهـاـ تـخـلـفـ بـالـفـعـلـ عـنـ طـبـعةـ رـامـوزـيـوـ كـمـاـ ظـهـرـتـ فـيـ الجـزـءـ الـأـوـلـ مـنـ كـتـابـ أـسـفـارـ بـحـرـيـةـ وـرـحـلـاتـ. فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ، كـانـ جـورـجيـ لـيفـيـ دـيلـاـ فـيدـاـ، وـهـوـ باـحـثـ بـارـزـ فـيـ الـلـغـاتـ وـالـآـدـابـ السـامـيـةـ، يـقـومـ باـكـتشـافـاتـهـ. كـانـ قدـ أـقـصـيـ عـنـ التـعـلـيمـ الجـامـعـيـ فـيـ عـامـ 1931ـ لـمـناـهـضـتـهـ الـفـاشـيـةـ، وـدـعـيـ لـتـنـظـيمـ قـوـائـمـ الـمـخـطـوـطـاتـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ مـكـتـبـةـ الـفـاتـيـكـانـ. وـفـيـ عـامـ 1939ـ، غـادـرـ إـلـىـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ، طـلـبـاـ لـلـأـمـانـ كـوـنـهـ يـهـودـيـاـ، وـلـكـنـ لـيـسـ قـبـلـ وـضـعـ الـلـمـسـاتـ الـنـهـائـيـةـ عـلـىـ كـتـابـ أـسـفـارـ عـلـىـ مـجـمـوعـاتـ

³ Miguel Casiri, *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*, 2 vols. (Madrid: Antonius Perez de Soto, 1760-1770), 1: 172-174; *Description de l'Afrique tierce partie du monde escripte par Jean Léon African*, Charles Schefer (ed.), 3 vols. (Paris: Ernest Leroux, 1896-1998).

أسس شيفر (1898-1820) مدرسة اللغات الشرقية، وحقق عدداً من النصوص حول فارس والرحلة إلى أمصار الإسلام، وجمع قدرًا عظيماً من المخطوطات العربية، اشتهرت بها لاحقاً المكتبة الوطنية.

The History and Description of Africa, written by Al-Hassan Ibn-Mohammed Al-Wezaz Al-Fasi, a Moor, baptized as Giovanni Leone, but better known as Leo Africanus, Robert Brown (ed.), 3 vols. (London: Hakluyt Society, 1896).

أشارت ترجمة لورسياك الألمانية أيضاً إلى اسم عربي في مقدمتها .(Rauchenberger, 31 n.118)

⁴ Louis Massignon, *Le Maroc dans les premières années du 16e siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain* ((Alger: Typographie Adolphe Jourdan, 1906), pp. 43-45.

شكر ماسينيون كـلـاـ منـ المـشـرـفـ عـلـىـ أـطـرـوـحـتـهـ، الجـغـرافـيـ الـاستـعـمـارـيـ أوـغـسـتـينـ بـيرـنـارـ Augustin Bernard، وبـاحـثـ الـفـولـكـلـورـ رـينـيهـ باـسـيـهـ René Basset، المتـخصـصـ بالـحكـاـيـاتـ الشـعـبـيـةـ لـلـبـرـيرـ وـشـمـالـ أـفـرـيقـيـاـ (ix-x). وقدـ أـعـدـ دـانـيـلـ نـورـدـمانـ Daniel Nordman وـرـقـةـ بـحـثـيـةـ مـمـتـازـةـ حـولـ كـتـابـ مـاسـينـيونـ فـيـ نـدوـةـ "ليـونـ الـأـفـرـيقـيـ"ـ التيـ عـقـدـتـ فـيـ مـدـرـسـةـ الـدـرـاسـاتـ الـعـلـيـاـ لـلـعـلـمـاتـ الـعـرـبـيـةـ، بـارـيسـ، 22ـ 24ـ ماـيـوـ 2003ـ، بـعنـوانـ Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle. Tableau géographique d'après Louis Massignon géographique d'après Louis Massignon (François Pouillon & Oumelbanine Zhiri (eds.), *Léon l'Africain*, forthcoming at the Institut d'Etude de l'Islam et des Sociétés du Monde Musulman (IISMM), Paris.

حـولـ "الـعـلـمـاتـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ"ـ الفـرـنـسـيـةـ، يـنظـرـ:

Li-Chuan Tai, "L'ethnologie française entre colonialisme et décolonisation (1920-1960)," Doctoral thesis, École des Hautes Études en Sciences Sociales (EHESS), 2001.

الشرقية في الفاتيكان. ومن بين المزایا الكثيرة لهذا الكتاب أنّ لديه الكثير مما يقوله عن ممارسات الوزان على صعيد القراءة والكتابة والغناء. وحين عاد ليفي ديلا إلى إيطاليا بعد الحرب، أعاد كوداتزي على تفسير مخطوطتين وجدهما لـ "جيوفاني ليوني أفريكانو" تتناولان مواضيع أخرى⁽⁵⁾.

كان آخر تناول استعماري لجان ليون لأفريكان ترجمةً وشرحاً فرنسيين جديدين أعدّهما أليكسي إيبولار. تأثر إيبولار، خلال الأعوام التي قضاها في المغرب طبيعاً وضابطاً مع الحماية الفرنسية، بما لكتاب *وصف أفريقيا من "قيمة استثنائية"*، تاريخية وجغرافية على السواء. وبنى كتابه على عمل ماسينيون وكوداتزي من دون أن ينتقد بروحيتهما. فقد استخدم المخطوطة الإيطالية في روما في عام 1939 - وقرّط عزم كوداتزي على نشرها يوماً ما (الأمر الذي لم يتم، للأسف) - لكن *وصف أفريقيا* خاصته هو خليط ترجمات من راموزيو وترجمات عارضة من المخطوطة وطبعه محدثة من ترجمة القرن السادس عشر الفرنسية. وقد تجاهل إمكان أن تكشف الفروق بين النصوص عن فروق أوسع في وجهة النظر والحساسية الثقافية.

واجهت طبعة إيبولار، شأنها شأن كتاب ماسينيون، توكيّدات جازمة وردت في *وصف أفريقيا* بأدلة من خارج صفحاته - من المسافات بين الأماكن إلى الكشف عن الحوادث التاريخية - وعملت على تصويب الوزان عند الضرورة، كما أوضحت الأسماء الجغرافية وحدّدت هوية المؤلفين العرب الذين استشهد بهم. ولتحقيق ذلك، جمع إيبولار فريقاً من الباحثين الفرنسيين في دراسات أفريقيا جنوب الصحراء، كان اثنان منهم وقتيلاً في داكار، في المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء Institut Français d'Afrique Noire، واستشار متخصصين بفولكلور شمال أفريقيا وتاريخه. وملاحظات إيبولار مفيدة، لكنها لا تتطرق إلى السؤال الذي طرّحه ماسينيون في شأن الموقع الذي اتخذه النص أو مؤلفه حيال العالم الذي كان يكتب له. وجرى تمليس الفروق مرة أخرى؛ إذ راق إيبولار أن يرى أن "جان ليون" لم يترك قطّ حياته المسيحية في إيطاليا.

لم يعش إيبولار ليرى تحقق مشروعه. لكن الفريق أتم العمل، ونشر *وصف أفريقيا* في باريس لدى المعهد العالي للدراسات الغربية Institut des Hautes Études Marocaines في عام 1956، بعد ثلاثة أعوام على استقلال المغرب⁽⁶⁾.

تصوّر فريق إيبولار أنّ قراءهم هم مؤرخو أفريقيا على نحوٍ خاص، وسرعان ما بدأ باحثو أفريقيا جنوب الصحراء يدلّون بدلولهم في شأن موثوقية الوزان بوصفه شاهداً. وفي العقود الأخيرة من القرن، قارن متخصصون من أوروبا وأفريقيا وأميركا الصفحات التي كتبها عن أفريقيا السوداء بأدلة أخرى وروايات لاحقة. وزعم بعضهم أنّ الوزان قدّم تفاصيل مقنعة وثمينة عن مجتمعات وممالك مغمورة، في

⁵ Angela Codazzi, "Leone Africano," *Enciclopedia italiana* (Rome, 1933), 20: 899; Angela Codazzi, "Dell'unico manoscritto conosciuto della Cosmografia dell'Africa di Giovanni Leone l'Africano," *Comptes rendus du Congrès international de géographie. Lisbonne 1949* (Lisbon, 1952), 4: 225-226; Angela Codazzi, "Il Trattato dell'Arte Metrica di Giovanni Leone Africano," in: *Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida*, 2 vols. (Rome: Istituto per l'Oriente, 1956), 1: 180-198 (henceforth AMC); Giorgio Levi Della Vida, *Ricerche sulla formazione del più antico fondo dei manoscritti orientali della Biblioteca Vaticana* (Vatican City: Biblioteca Apostolica Vaticana, 1939), viii (dedication dated Rome, August 1939), pp. 99-110.

⁶ Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, Alexis Épaulard (trad.), annotated by Alexis Épaulard, Théodore Monod, Henri Lhote, and Raymond Mauny, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, no. 61 (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient, 1956), pp. v-xvi.

أعيد طبع هذه الطبعة في 1981-1980. والحال أنّ استخدام أليكسي إيبولار المخطوطة V.E. 953 في المكتبة المركزية الوطنية في Biblioteca Nazionale Centrale، روما، بين 6 و20 حزيران/ يونيو 1939، مسجّل في القائمة المدسوسة في المخطوطة. درس إيبولار (1878-1949) الطبّ في جامعة ليون، وقدم أطروحة حول "مضى الدماء"، الولع بالجثث، السادية بالجثث، أكل الجثث" Vampire, nécrophilie, nécrosadisme, nécrophagie. كان تيودور مونود Théodore Monod موظفاً، وهو بروفيسور في متحف التاريخ الطبيعي Museum of Natural History في باريس، ثانى الاثنين أسسما المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء في عام 1938. وفي الوقت الذي نُشرت فيه طبعة إيبولار من *وصف أفريقيا*، كان مونود قد غدا واحداً من أنصار المجلة الجديدة Présence africaine التي أسسها المثقفون الأفارقة وكانت تصدر في داكار وبباريس، ينظر: Tai, pp. 195, 253-255

حين زعم بعضهم الآخر أنه كان ينقل قصصاً طويلة التقاطها في تمبكتو وأنه لم يسافر قطًّا بعد منها. فهنا حاكم أثيَّت وجوده، وهناك غزو أثبَت زيفه، هنا ممارسة تجارية مؤكدة، وهناك حريق لم يذكره أحد غير الوزان. ولقد عملت جملة هذه المقاربات - في سعيها المحق وراء "التدقيق الحريص في التعامل" مع مصدر رئيس - على تشطية وصف أفريقيا بدلاً من اعتباره ككل أو اعتبار ممارسات مؤلفه الأدبية⁽⁷⁾.

بينما كان المستشرقون يتجادلون، ظهر جيل جديد من قراء الوزان ما بعد الاستعماريين. كانت الأهم بين هؤلاء أم البنين الزهيري التي أخذتها إسفارها هي نفسها من بلدها الأصلي المغرب إلى فرنسا ثم إلى الولايات المتحدة. وأظهر كتابها الصادر عام 1991 *أفريقيا في مرآة أوروبا: مصائر ليون الأفريقي في عصر النهضة*، ما كان لطبعات كتاب جان ليون من أثر في النظرية الأوروبية إلى شعوب أفريقيا ومشاهدها ومضاييقها. وكان منظور أم البنين الزهيري واسعاً - شمل كتب الأدب والتاريخ والجغرافيا - وهي تفصل في ما أخذه الكتاب الأوروبيون من وصف أفريقيا أو أعادوا صوغه أو تجاهلوه في بعض الأحيان. وقد أقحمت العالم غير الأوروبي في وعي عصر النهضة بطريقة جديدة. فخلاف دراسات أسبق للمواقف الأوروبية من الأتراك، تلك الدراسات التي أتى فيها كامل التصور من الجانب الأوروبي، أقام كتاب أم البنين الزهيري ضرباً من التبادل، وترك لجان ليون الشمال أفريقيا أن يحدث فارقاً. وقد تابعت أم البنين الزهيري القصة قدماً عبر القرون، وتلتفت الآن إلى قضايا في المخطوطة ذاتها⁽⁸⁾.

تأتي الدراسة الكبرى الثانية من جزء آخر من العالم وتأخذ القصة في اتجاهات مختلفة. وبعد سنواتٍ عمل فيها الألماني ديتريش روشنبرغر Dietrich Rauchenberger خابطاً ودبليوماسيَا في المغرب وتونس، غاص عميقاً يبحث في الحسن الوزان الأسر. وساقه بحثه، بين محطات أخرى، إلى مخطوطة الأفريقي في روما، وهي أساس كتابه الضخم *Johannes Leo der Afrikaner* (يوهانيس ليو دير أفريقيانير) (1999). عاد روشنبرغر في هذا العمل إلى حياة يوهانيس ليو وأعماله والوسط الإيطالي الذي عاش فيه، وكشف عن صدى أعماله غير المعروف كثيراً لدى الباحثين الألمان. وتكمِّن قوَّة الدراسة التي أُنجزها

7 ينظر، على سبيل المثال:

Pierre Kalck, "Pour une localisation du royaume de Gaoga," *Journal of African History*, vol. 13, no. 4 (1972), pp. 520-540; R.S. O'Fahey & J.L. Spaulding, "Comment: The Geographic Location of Gaoga," *Journal of African History*, vol. 14, no. 3 (1973); Pierre Kalck, "Response," *Journal of African History*, vol. 14, no. 3 (1973), pp. 505-508; Humphrey J. Fisher, "Leo Africanus and the Songhay Conquest of Hausaland," *International Journal of African Historical Studies*, vol. 11, no. 1 (1978), pp. 86-112; Djibo Mallal Hamani, *Au carrefour du Soudan et de la Berberie: Le sultanat touareg de l'Ayar* (Niamey: Institut de Recherches en Sciences Humaines, 1989), pp. 177-178, 181, 184; John O. Hunwick (ed.), *Timbuktu and the Songhay Empire: Al-Sa'di's Ta'rikh al-Sudan down to 1613 and other Contemporary Documents* (Leiden: Brill, 1999), pp. 113, 285 n.74; Pekka Masonen, *The Negroland Revisited: Discovery and Invention of the Sudanese Middle Ages* (Helsinki: Finnish Academy of Science and Letters, 2000), chap. 4.

يشكُّ هذا الكاتب الأخير، بيكان ماسونين، في أن يكون الوزان قد رأى أي شيء من أفريقيا جنوب الصحراء يتعدي زيارةً أولى إلى تمبكتو (ص 188-189). ويستنتج جون أوين هنريك أن الوزان زار على الأقل بعض مناطق جنوب الصحراء التي وصفها؛ واستخدامه نص الوزان هو استخدام حسيف ومقطع يملئه تضليله الاستثنائي من مصادر تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء. أما بيير كالك فهو استثنائي في تقسيمه ما يجده في وصف أفريقيا من خطأ أو إغفال بشيء غير الذاكرة الضعيفة أو تناقل الشائعات، إذ يتساءل ما الذي أراد "ليون لأفريكان" أن يقوله وما الذي أسلكه عن قوله، في الطرف الذي كان فيه وقت الكتابة. ينظر Kalck, "Pour une localisation," pp. 546-547.

8 Oumelbanine Zhiri, *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance* (Geneva: Librairie Droz, 1991); Oumelbanine Zhiri, *Les sillages de Jean Léon l'Africain: XVIe au XXe siècle* (Casablanca: Wallada, 1995); Oumelbanine Zhiri, "Il compositore ou l'autobiographie éclatée de Jean Léon l'Africain," in: Ali Benmakhlof (ed.), *Le voyage des théories* (Casablanca: Éditions Le Fennec, 2000), pp. 63-80.

في أعقاب كتاب أم البنين الزهيري، استخدم جيل أصغر من الباحثين الأدبيين نص الوزان لإعادة التفكير في أثر قضايا العرق والجنس خارج أوروبا والاستعمار في المخيلة الأوروبية. ينظر على نحو خاص:

Kim F. Hall, *Things of Darkness: Economies of Race and Gender in Early Modern England* (Ithaca/ London: Cornell University Press, 1995), pp. 28-40; Bernadette Andrea, "The Ghost of Leo Africanus from the English to the Irish Renaissance," in: Patricia Clare Ingham & Michelle R. Warren (eds.), *Postcolonial Moves: Medieval Through Modern* (New York: Palgrave Macmillan 2003), pp. 195-215.

ينظر أيضاً موقع كريستيل دو روفرى الإلكتروني الغني بالمعلومات، في: www.leoaficanus.com

روشنبرغر في معالجته الرائعة صفحات الوزان التي هي محل خلاف عن أفريقيا جنوب الصحراء. وقد استخدم روشنبرغر المخطوطة وضروب اختلافها عن الطبعات الصادرة كي يقوم صدقية الوزان بوصفه ملاحظاً ورحلة، وأدرج هذا التقويم ضمن لوحة شديدة الغنى لمنطقة جنوب الصحراء وشعوبها. وختم دراسته مستحسناً ما قاله واحد من المتخصصين بأفريقيا عن فريق إبولا: "نحن محظوظون لأن عمل ليون الأفريقي كان موجهاً إلى جمهور أوروبي في أوروبا. ولو كتب لجمهور عربي، لأهملت تفاصيل كثيرة ثمينة كان سيُعتبر أنها معروفة".⁹

الحال أنَّ باحثي الدراسات العربية والباحثين العرب في المغرب راحوا يلتفتون أكثر فأكثر إلى الوزان وكتابه عن أفريقيا. ففي عام 1995، عمل سيرافين فنخول Serafin Fanjul، المتخصص بالأدب العربي، على ترجمة جديدة لطبع راموزيو من *وصف أفريقيا إلى الإسبانية*. وسعى، من جهةٍ، إلى ردم الهوة ما بين المستعربين والمستعربين، وأراد، من جهة أخرى، أن يعلن حق "الإرث الثقافي" المختلط إسبانيا بـ"خوان ليون" الذي ولد في غرناطة⁽¹⁰⁾.

كانت لدى فنخول شكوكه حول صدق تحويل خوان ليون إلى المسيحية، وهو فعل كان مربكاً للباحثين في المغرب منذ البداية. ففي دراسة رائدة تعود إلى عام 1933، وصف محمد المهدى الحجوى الحسن الوزان بأنه أسرى اضطر إلى ذلك التحول، لكنه بقي على ارتباط دائم بشعبه ودينه، بل ترك أثراً هو نفسه لدى البابا. وبعد ذلك بخمسة وأربعين عاماً، في عام 1980، صدرت في الرباط أول ترجمة عربية لكتاب الوزان عن أفريقيا. وكان مترجمه، محمد حجي، قد دافع قبل بعض الوقت في السوربون عن أطروحته التي تتناول الحياة الفكرية في المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبات أستاذًا للتاريخ في جامعة الرباط. وفي تقديم ترجمته عن النسخة الفرنسية التي أعدّها إبولا، استعاد محمد حجي الوزان بالإلحاح على تظاهره بالتمسح وعلى الصبغة الإسلامية المتجلية في كتاب *وصف أفريقيا* كاستخدامه "نا" الدالة على الجماعة كلما تحدث عن عادة أو عيد أو غير ذلك مما يخص المسلمين، ما يُظهر تمسكه المتواصل بالإسلام⁽¹¹⁾.

أعيد طرح مثل هذه المسائل في مؤتمر حول "ليون لوفريكان" عُقد في باريس في عام 2003 وجمع باحثين من المغرب وأوروبا وأميركا الشمالية تهمّهم هذه الشخصية الملغزة. وعندما كانت مهمّة استعادته للمغرب قد غدت أقلّ حساسية. وهو أمر لا يعود الفضل فيه إلى نصّ علميّ، بل إلى رواية مفعمة بالحيوية قررت على نطاق واسع، هي *ليون الأفريقي* (1986) لأمين معلوم. ولد معلوم في لبنان لأسرة ذات انتمامات دينية مختلطة وامتداد جغرافي واسع، وعمل مدة في الصحافة العربية ثم رحل إلى فرنسا، حين مُرقت الحرب

9 Rauchenberger, p. 237 (quoting Raymond Mauny).

ينسخ روشنبرغر أيضًا صفحات الوزان حول أفريقيا جنوب الصحراء.

10 Juan León Africano, *Descripción general del África*, Serafin Fanjul with the assistance of Nadia Consolani (ed. & trans.) (Barcelona/Madrid: Lunwerg Editores, 1995), introduction, pp. 11-47.

مثل ماسيينيون في ستينيات القرن الأولى، وصف فنخول العمل بأنه "عربي في موضوعه وإن كان إيطاليًا في شكله وإلهامه المباشر" (ص 43). كانت قد ظهرت ترجمة إسبانية أكبر لطبع راموزيو في عام 1940، نشرها معهد الجنزال فرانكلو للدراسات والبحوث الإسبانية العربية Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Árabe.

11 محمد المهدى الحجوى، *حياة الوزان الفاسى وأثاره* (الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1935); الحسن الوزان، *وصف أفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر (الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدين؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1980)؛ ينظر أيضًا: Muhammad Hajji, *L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque Sa'dide*, 2 vols. (Rabat: Dar El-Maghrib, 1976-1977).

ُقدمت أوراق بحثية مهمة حول دراسة الحجوى و حول ترجمة حجي في الندوة الموسمية "Léon l'Africain," Colloque de L'Institut d'Étude de l'Islam et des Sociétés du Monde Musulman (IISMM), Paris, 22-24 May 2003.

Alain Roussillon, "Une lecture réformiste de Leo Africanus: Patrimonialisation d'un renégat."

وينظر حول الموضوع الثاني ما كتبه إدريس منصوري. والمادتان ستنشران في:

Pouillon & Zhiri (eds.), *Léon l'Africain*.

الأهلية بلاده. وهناك أنهى دراساته في الاقتصاد وعلم الاجتماع، وكتب مجلة *جون أفرييكي Jeune Afrique* وعمل في تحريرها، وهي دورية لحركات الاستقلال الأفريقية والبلدان المتشكلة حديثاً، وأصدر في عام 1983 عملاً واسع القراءة - بطبعتين فرنسية وعربية - حول الحروب الصليبية كما رأها العرب.

بعد ذلك بثلاثة أعوام، وجد معلوم صوته، بوصفه كاتب روایات تاريخية، يكتب بالفرنسية عن الماضي العربي والإسلامي، وأوجد في ليون الأفريقي / الحسن الوزان شخصية تمثل تمام التمثيل طريقته هو نفسه في الارتفاع فوق "هوبات" اللغة والدين والأمة الضيقة والإقصائية. يقول بطله في مطلع الرواية: "لم أصدر عن أي بلد، ولا عن أي مدينة، ولا عن أي قبيلة. فأنا ابن السبيل، وطني هو القافلة [...] جميع اللغات وكل الصلوات ملك يدي". ويقول معلوم عن نفسه: "أنتمي إلى قبيلة ترتحل منذ الأزل في صحراء وسع البسيطة. بلداناً واحات نقارتها حين يجف النبع [...] ما يصل بیننا، عبر الأجيال، عبر البحار، وعبر بابل اللغات، ليس سوى هسهسة اسم". مسارات، وليس جذور: لقد رأى معلوم في ليون الأفريقي شخصية من ماضيه المتوسطي تضفر "ثقافات متعددة"⁽¹²⁾.

قد يرى المؤرخون أنَّ صورة الوزان لدى المعلوم تعم طليقةً بعض الشيء في مراكمتها البيسيرة أدواتاً وموافق وحساسيات، لكنَّها تفتح الباب لأسئلة جديدة. ففي ندوة عام 2003، كان لدى زملاء من المغرب نظرات متنوعة في شأن التنسيب المكاني الشفافي للوزان، لكنهم كانوا يرون جميئاً أنَّ هذه قضية يجب مواجهتها. وقدم الفيلسوف علي بن مخلوف سياقاً أوروبياً صارماً لفن الوصف عند الوزان؛ ورأى الأنثربولوجي التاريخي هواري تواتي أنَّ تناوله حيوانات أفريقيا متصل بتأليف عربية أسبق؛ ووجد أحمد بوشارب في تناول الوزان لل المعارك بين البرتغاليين والمغاربة امتداداً لأسكارل معينة من الكتابة التاريخية العربية، لكنَّ عدم تحيزه يُظهر أنه تخفف من كلِّ شعور حيال عالمه الأصلي؛ أما عبد المجيد القدوري فقد تأول كتاب الوزان وصف أفريقياً على أساس الأجناس العربية والأوروبية على السواء⁽¹³⁾.

اهتمام هؤلاء الزملاء المغاربة بالتنسيب المكاني والانتقال الثقافيين هو الأقرب إلى اهتمامي. لقد وقعت على كتاب حسن الوزان وصف أفريقياً أول مرة منذ أكثر من أربعين عاماً، حين كنت قد أنهيت للتو أطروحتي للدكتوراه حول البروتستانية وعَمَال الطباعة في ليون القرن السادس عشر. كان واحداً من بروتستانت ليون أولئك التاجر-الناشر جان تمبورال الذي كان يترجم كتاب الوزان إلى الفرنسية وطبعه في أواسط خمسينيات القرن السادس عشر. وقد عجبت لاتساع اهتمامات تمبورال ولرسوم التوضيحية التي حفرها

12 Amin Maalouf, *Léon l'Africain* (Paris: Jean-Claude Lattès, 1986), pp. 7, 9; Amin Maalouf, *Les croisades vues par les Arabes* (Paris: Jean-Claude Lattès, 1983); "Amin Maalouf," in: Marcos Ancelovici & Francis Dupuis-Déri, *L'archipel identitaire. Recueil d'entretiens sur l'identité culturelle* (Montréal: Boréal, 1997), pp. 169-172; Amin Maalouf, *Origines* (Paris: Bernard Grasset, 2004), pp. 9-10; Amin Maalouf, interview by author, Paris, 17 October 1997.

13 Ali Benmakhlof, "Cosmologie et cosmographie au XVIe siècle: Le statut épistémique de la description,"; Houari Touati, "La girafe de Léon l'Africain,"; Ahmed Bouchar, "La conquête ibérique du littoral marocain d'après la *Description de l'Afrique*: Vision d'une entreprise guerrière en terre d'Islam,"; Abdelmajid Kaddouri, "Al-Wazzan de part et d'autre de la Méditerranée: Lire Léon dans une perspective de regards croisés," all papers presented at the Colloque "Léon l'Africain," to be published in Pouillon & Zhiri (eds.).

كما كتب باحثان مغاربيان آخرين عن الوزان في كتاب وصلني بينما كان كاتبي في طريقه إلى الطباعة، وهما حميد التريكي وأمينة أوشان اللذان ساهموا بمقاتلتين افتتاحيتين لطبعه ذات رسوم توضيحية جميلة من ترجمة إيبولار لصفحات الوزان عن فاس *Fez dans la Cosmographie d'Al-Hassan ben Mohammed al-Wazzan az-Zayyat: dit Léon l'Africain* (Mohammedia, Morocco: Senso Unico Editions, 2004).

صهره لأفريقيا متختلة^(١٤). لكنَّ انتباхи كانَ مركزاً آنئذ على شيء آخر: على المواجهة بين عامل ورب عمل وبين رجل عادي ورجل دين ضمن الحياة الكثيفة لمدينة فرنسية، وهم رعايا قلماً عُنيت بهم كتابة التاريخ في خمسينيات القرن العشرين. أما المواجهة بين أوروبا وأفريقيا التي انطوى عليها وصف **أفريقيا** فبدت نائية وأقل إلحاحاً. ولعل التحولات المذهبية التي حاولت سير أغوارها من الكاثوليكية إلى البروتستانتية كانت شائقة على نحو خاص لأنّها كانت تجري في قلوب بشرٍ قليلي الشأن وعقولهم. أما التفاعل المستدام بين الإسلام والمسيحية الذي لعلني اكتشفته في حياة "جان ليون لوأفريكان" وكتابته فربما بدا موقفاً دينياً أشد عادية من أن يثير التحليل.

في أواسط تسعينيات القرن العشرين، كانت العلاقة بين الشعوب الأوروبية وغير الأوروبية في مركز الأمور، وكان ثمة تحدٌ لطريق التفكير القطبية. وكان باحثون مثل هومي بابا يقيمون العلاقات الثقافية بين المستعمرين والمستعمرات في الهند على أساس "الهجننة" لا "الاختلاف" و"الآخرية" الواضحين. ومع أنَّ السيطرة والمقاومة كانتا لا تزالان أساسيتين في فهم الماضي، فإنَّه كان في مقدور المؤرخ الأميركي ريتشارد وايت أن يمضي من هناك إلى رسم خريطة "المنطقة الوسطى" التي جرت فيها الدبلوماسية والتجارة وسواها من أشكال التبادل بين الأميركيين الأصليين والإنجليز الذين استوطنو أرض أجدادهم. وكان بول غيلروي يخطط عمله **أطلانطا السوداء**، "أخذًا النقاش حول الثقافة السياسية السوداء أبعد من التضاد الثنائي بين المنظورين القومي والشتاتي [...]" واضعًا العالم الأطلسي الأسود في شبكة عنكبوتية، بين المحلي وال العالمي^(١٥). وكانت أنا، أيضاً، أعيد التفكير بتلك الأطلانط في أثناء كتابتي عن النساء الأوروبيات "على الهوامش"، بالصلة مع نساء الإيروكوا والأغونوكوين في كيبك ومع النساء الكاربيبيات والأفريقيات في سورينام^(١٦).

بدت تلك لحظة مناسبة لأنَّ أعود إلى جان ليون لوأفريكان الذي بدأت أفكر فيه بوصفه الحسن الوزان، الاسم الذي حمله معظم حياته. وكانت لدى حينها صلات عائلية بذلك الشطر الذي يخصه من العالم، في المغرب وتونس. واستطعت، من خلال مثاله، أن أستكشف كيف أمكن لرجل تنقل بين كيانين سياسيين مختلفين أن يفيد من مصادر ثقافية واجتماعية مختلفة، ويسبكها أو يفصلها بغية أن يبقى ويفتش ويكتب ويقيم العلاقات ويفكر في المجتمع وفي نفسه. وحاولت أن أرى ما إذا كانت هذه السيرة يسيرةً أم ضرباً من الكفاح، وإذا ما كانت تجلب البهجة أم الخيبة. ومثل بعض الآخرين الذين كتبوا عنهم، فإنَّ الحسن الوزان هو حالة متطرفة - إذ لم يقع معلم مسلمي شمال أفريقيا في إسار القراصنة المسيحيين أو لم يسلّموا، إذا وقعوا، إلى البابا - لكنَّ حالة متطرفة كثيرةً ما يمكن أن تكشف أنساقاً متاحةً للتجربة والكتابة العاديتين^(١٧).

لفتَ مهاجر إلى فرنسا من أصل غير أفريقي انتباхи إلى خطير أكبر حين كنت أحاضر في ليون. كان يريديني أن أتحدث عن السياسات الشرسة التي تمارسها الحكومات تجاه الغرباء والاستغلال الاقتصادي والجنساني للمهاجرين، وليس عن ضروب التبادل الثقافي واستراتيجيات الوافدين في التكيف، وبعضها خفي. وقد أخذت تحذيره هذا على محمل الجد - فعلاقات السيطرة وعلاقات التبادل

¹⁴ *Historiale Description de l'Afrique, tierce partie du monde*. Escrite de notre tems [sic] par Jean Leon, African, Jean Temporal (trad.) (Lyon: Jean Temporal, 1556-1557).

نجد في صفحة العنوان أنَّ تاريخ النشر هو 1556، لكنَّ حظوة جان تمبورال لدى هنري الثاني تشير إلى أنَّ الطباعة انتهت في 4 كانون الثاني / يناير 1556، بحسب التقويم الجديد. القديم، الموافق 4 كانون الثاني / يناير 1557، بحسب التقويم الجديد.

¹⁵ Homi Bhabha, *The Location of Culture* (New York and London: Routledge, 1994), chaps. 1, 6, 10; Richard White, *The Middle Ground: Indians, Empires and Republics in the Great Lakes Region, 1650-1815* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991); Paul Gilroy, *The Black Atlantic. Modernity and Double Consciousness* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993), p. 29; Natalie Zemon Davis, *Women on the Margins: Three Seventeenth-Century Lives* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995).

¹⁶ يجد القارئ بعض الأمثلة على هذه المقاربة في:

Leo Spitzer, *Lives in Between: Assimilation and Marginality in Austria, Brazil, West Africa 1780-1945* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1989); Mercedes García-Arenal & Gerard Wiegers, *A Man of Three Worlds: Samuel Pallache, a Moroccan Jew in Catholic and Protestant Europe*, Martin Beagles (trans.) (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2003).

لا تني تتفاعل على نحو من الأنحاء - واللوحة التي أرسمها لحسن الوزان تلاحظ متى كان تحت سلطة سيد من الأسياد أو آسر من الآسين أو حاكم من الحكام.

كانت السنوات التي عاش فيها الوزان، وهي العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر والعقود الأولى من القرن السادس عشر، مزدحمة بالتغيير والصراع السياسيين والدينيين. ففي مشرق العالم الإسلامي، كان الأتراك العثمانيون سائرين قدماً، فلم يغزوا جيرانهم الشيعة في بلاد فارس فحسب، بل الحكام السنة مثلهم في سوريا ومصر. وفي المغرب (كما كان يُطلق على الغرب الإسلامي)، ولا سيما في مراكش، كانت الحركات الدينية الصوفية والزعماء القبليون المتحالفون يهددون بتغيير السلطة التي كان يستند إليها الحكم السياسي. وفي أوروبا المسيحية، كان الحكام من آل هابسبورغ في صعود، وسعوا هيمنتهم على الإمبراطورية الرومانية المقدسة من خلال زبيحة محنكة أتاحت لهم السيطرة على إسبانيا. وتحداهم الملوك الفرنسيون عند كلّ منعطف، إن لم يكن في إمبراطوريتهم الخارجية المتتممية، فعلى السلطة في أوروبا ولا سيما في إيطاليا. وفي حين كانت كاثوليكية شديدة العزم تمنح قوةً جديدة لحكم سالٍ في إسبانيا، كانت الحركة اللوثيرية تتبرعم في ألمانيا وتحدى الحكم البابوي في الكنيسة. وفي حين كانت الصراعات تعتمل داخل كلّ من المسلمين والمسيحيين، كانت هاتان الجماعتان الدينيتان تتواجهان، وكان الإسبان والبرتغاليون يحرزون انتصارات في شبه الجزيرة الإيبيرية ذاتها وفي غرب المتوسط، في حين كان العثمانيون يحرزون انتصارات في البلقان وفي شرق المتوسط. غير أنَّ هذه العقود، وفي مفارقةٍ كثيرةً ما شهدتها التاريخ، كانت مفعمةً أيضاً بالتبادل عبر الحدود ذاتها - تجارة وسفر وحركة أفكار وكتب ومخطبات - كما كانت مفعمةً بالتحالفات المتبدلة التي تحول أعداء إلى متعاونين مؤقتين. هذا ما كان عليه هذان العلمانان اللذان أدى فيهما بطل هذا الكتاب دوره، كما سوف نرى بمزيد من التفصيل.

حاولت أن أحدد موقع الوزان على أكمل وجه ممكن في مجتمع شمال أفريقيا في القرن السادس عشر، ذلك المجتمع الذي كان مأهولاً بالبربر والأندلسيين والعرب واليهود والسود، وكان الأوروبيون يفرضون حدوده؛ وأنَّ المنظورات الدبلوماسية والعلمية والدينية والأدبية والجنسية التي جلبها معه إلى إيطاليا؛ وأنَّ أظهر تفاعله مع ذلك المجتمع الأوروبي المسيحي: ما تعلمه، ما أثار اهتمامه وما أزعجه، ما فعله، كيف تغير، وخصوصاً كيف كتب في أثناء وجوده هناك. والصورة التي أرسمها هي صورة رجل ذي رؤية مزدوجة، يحافظ على عالمين ثقافيين، ويتخيل جمهورين في بعض الأحيان، ويستخدم تقنيات مستمدّة من الذخيرة العربية والإسلامية في الوقت الذي يضفر معها عناصر أوروبية على طريقته.

في أثناء سعيه وراء الوزان، ظلت تلفتني التناقضات أو الألغاز المترفرفة في نصوصه وضروب الصمت في السجل المعاصر له. فحين قرأتُ، مثلاً، رسائله إلى راعٍ كان الوزان يُعِدُّ له مخطوطة، حبسَ أنفاسي منتظرًا أن يذكر اسمه، وأغلقتُ الملفَ خائبةً حين لم أجده. وحين لاحظت تناقضات وأشياء لا يقبلها العقل في أوقات سفره أو بيانات سيرته الذاتية، على سبيل المثال، همني أن أرى إنْ كان في مقدوري حلّها، وأخفقت بقدر ما أفلحت. وإذا لاحظت صمته في ما يتعلق بمواضيع حسبت أنها أثيرية لديه، استهجنت ذلك. وأدركتُ، أخيراً، أنَّ ضروب الصمت والتناقضات والألغاز المترفرفة هي سمة من سمات الوزان، وأنَّ علىَ أن أقبلها بوصفها مفاتيح لفهمه وفهمه حالة. أيّ نوع من الأشخاص ذاك الذي يتشهّى الصمت في مجتمعاته وأزمانه؟ أيّ نوع من المؤلفين ذاك الذي يترك في نصّ ألغازًا وتناقضات وابتداعات؟

تنمّل استراتيجيتي في أن أبدأ بالأشخاص والأماكن والنصوص التي تؤكّد أدلةً متينةً أنه عرفها أو تشير إلى ذلك، وأنَّ أبني من مصادر إضافية تتعلّق بها ما كان محتملاً أن يراه أو يسمعه أو يقرأه أو يفعله. وكان على طوال الوقت أن أستخدم حالة الشرط ("لو... لكان"، "قد يكون"، "كان يمكن أن يكون") والتخمين ("ربما"، "من الممكن"). وهذه هي دعوتي القارئ لأن يتبع قصة حياة يقبلها

العقل من مواد عصرها. وتنطوي كتابات الوزان على المتن الرئيسي لحكاياتي، لا محتواها فحسب، بل استراتيجيات مؤلفها وعقليته كما يمكن استخلاصها من مخطوطاته ومن لغة هذه المخطوطات. أما التغييرات في نصوص كتابه عن أفريقيا المطبوعة لاحقاً فتشير إلى نوع الرجل الذي فضل الأوروبيون أن يكون عليه.

نظرًا إلى سفري مع الوزان كلّ هذا السفر، حاولت أن أكتشف كيف انتهت قصته عندما عبر المتوسط من جديد إلى شمال أفريقيا. وما الذي كانت عليه حصيلة حياته وإرثه؟ هل أنّ أمر مياه المتوسط لا يقتصر على فصل الشمال عن الجنوب، فصل المؤمن عن الكافر، بل يتعدّاه إلى الوصل بينهما من خلال استراتيجيات مماثلة من التورية، والأداء، والترجمة، والسعي وراء الاستارة السلمية؟



References

المراجع

العربية

- الحجوبي، محمد المهدى. *حياة الوزان الفاسى وأثاره*. الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1935.
- الوزان، الحسن. *وصف أفريقيا*. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدلين؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1980.

الأجنبية

- Africano, Juan León. *Descripción general del África*. Serafin Fanjul with the assistance of Nadia Consolani (ed. & trans.). Barcelona/ Madrid: Lunwerg Editores, 1995.
- Ancelovici, Marcos & Francis Dupuis-Déri. *L'archipel identitaire. Recueil d'entretiens sur l'identité culturelle*. Montréal: Boréal, 1997.
- Bedini, Silvio A. *The Pope's Elephant*. London: Carcanet, 1997.
- Benmakhlof, Ali (ed.). *Le voyage des theories*. Casablanca: Éditions Le Fennec, 2000.
- Bhabha, Homi. *The Location of Culture*. New York and London: Routledge, 1994.
- Casiri, Miguel. *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*. Madrid: Antonius Perez de Soto, 1760-1770.
- Codazzi, Angela. "Dell'unico manoscritto conosciuto della *Cosmografia dell'Africa* di Giovanni Leone l'Africano." *Comptes rendus du Congrès international de géographie. Lisbonne 1949*. Lisbon, 1952.
- Davis, Natalie Zemon. *Trickster Travels: A Sixteenth-Century Muslim between Worlds*. New York: Farrar, Straus and Giroux/Hill and Wang, 2006.
- _____. *Women on the Margins: Three Seventeenth-Century Lives*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995.
- *Description de l'Afrique tierce partie du monde escripte par Jean Léon African*. Charles Schefer (ed.). Paris: Ernest Leroux, 1896-1998.
- *Enciclopedia italiana*. Rome, 1933.
- *Fez dans la Cosmographie d'Al-Hassan ben Mohammed al-Wazzan az-Zayyat, dit Léon l'Africain*. Mohammedia, Morocco: Senso Unico Editions, 2004.
- Fisher, Humphrey J. "Leo Africanus and the Songhay Conquest of Hausaland." *International Journal of African Historical Studies*. vol. 11, no. 1 (1978).
- García-Arenal, Mercedes & Gerard Wiegers. *A Man of Three Worlds: Samuel Pallache, a Moroccan Jew in Catholic and Protestant Europe*. Martin Beagles (trans.). Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2003.
- Gilroy, Paul. *The Black Atlantic. Modernity and Double Consciousness*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993.
- Hajji, Muhammad. *L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque Sa'dide*. Rabat: Dar El-Maghrib, 1976-1977.

- Hall, Kim F. *Things of Darkness: Economies of Race and Gender in Early Modern England*. Ithaca/ London: Cornell University Press, 1995.
- Hamani, Djibo Mallal. *Au carrefour du Soudan et de la Berberie: Le sultanat touareg de l'Ayar*. Niamey: Institut de Recherches en Sciences Humaines, 1989.
- *Historiale Description de l'Afrique, tierce partie du monde*. Escrite de notre tems [sic] par Iean Leon, African. Jean Temporal (trad.). Lyon: Jean Temporal, 1556-1557.
- Hunwick, John O. (ed.). *Timbuktu and the Songhay Empire: Al-Sa'di's Ta'rikh al-Sudan down to 1613 and other Contemporary Documents*. Leiden: Brill, 1999.
- Ingham, Patricia Clare & Michelle R. Warren (eds.). *Postcolonial Moves: Medieval Through Modern*. New York: Palgrave Macmillan 2003.
- Jean-Léon l'Africain. *Description de l'Afrique*. Alexis Épaulard (trad.). annotated by Alexis Épaulard, Théodore Monod, Henri Lhote, and Raymond Mauny. Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines 61. Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient, 1956.
- Johann Leo's des Africaners Beschreibung von Africa. Georg Wilhelm Lorsbach (trans.). Herborn, 1805.
- Kalck, Pierre. "Pour une localisation du royaume de Gaoga." *Journal of African History*. vol. 13, no. 4 (1972).
- _____. "Response." *Journal of African History*. vol. 14, no. 3 (1973).
- "Léon l'Africain." Colloque L'Institut d'Étude de l'Islam et des Sociétés du Monde Musulman (IISMM). Paris, 22-24 May 2003.
- Levi Della Vida, Giorgio. *Ricerche sulla formazione del più antico fondo dei manoscritti orientali della Biblioteca Vaticana*. Vatican City: Biblioteca Apostolica Vaticana, 1939.
- Maalouf, Amin. *Les croisades vues par les Arabes*. Paris: Jean-Claude Lattès, 1983.
- _____. *Léon l'Africain*. Paris: Jean-Claude Lattès, 1986.
- _____. *Origines*. Paris: Bernard Grasset, 2004.
- Masonen, Pekka. *The Negroland Revisited: Discovery and Invention of the Sudanese Middle Ages*. Helsinki: Finnish Academy of Science and Letters, 2000.
- Massignon, Louis. *Le Maroc dans les premières années du 16e siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain*. Alger: Typographie Adolphe Jourdan, 1906.
- O'Fahey, R.S. & J.L. Spaulding. "Comment: The Geographic Location of Gaoga." *Journal of African History*. vol. 14, no. 3 (1973).
- Pouillon, François & Oumelbanine Zhiri (eds.). *Léon l'Africain*, forthcoming at the Institut d'Étude de l'Islam et des Sociétés du Monde Musulman (IISMM). Paris.
- Rauchenberger, Dietrich. *Johannes Leo der Afrikaner. Seine Beschreibung des Raumes zwischen Nil und Niger nach dem Urtext*. Wiesbaden, 1999.
- Spitzer, Leo. *Lives in Between: Assimilation and Marginality in Austria, Brazil, West Africa 1780-1945*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1989.

- *Studi orientalistici in onore di Giorgio Levi Della Vida.* Rome: Istituto per l'Oriente, 1956.
- Tai, Li-Chuan. "L'ethnologie française entre colonialisme et décolonisation (1920-1960)." Doctoral thesis. The École des Hautes Études en Sciences Sociales (EHESS). 2001.
- *The History and Description of Africa.* Written by Al-Hassan Ibn-Mohammed Al-Wezaz Al-Fasi, a Moor, baptized as Giovanni Leone, but better known as Leo Africanus. Robert Brown (ed.). London: Hakluyt Society, 1896.
- White, Richard. *The Middle Ground: Indians, Empires and Republics in the Great Lakes Region, 1650-1815.* Cambridge: Cambridge University Press, 1991.
- Zhiri, Oumelbanine. *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance.* Geneva: Librairie Droz, 1991.
- _____. *Les sillages de Jean Léon l'Africain: XVIe au XXe siècle.* Casablanca: Wallada, 1995.